

كتاب الشباب

دار الأشباح



أحمد عبدالسلام البقالي

تصميم



دارُ الأُشباح

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العتيقة

(ح) مكتبة العبيكان، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

دار الأشباح - الرياض.

—ص، ١٤ X ٢١ سم (سلسلة كتاب الشباب)

ردمك: ٢٢٨-٣-٢٠-٩٩٦٠

١- القصص البوليسية العربية أ- العنوان ب- السلسلة

١٧/٠١٣٦

ديوي ٨٧٢.٠٨٣ر

رقم الإيداع: ١٧/٠١٣٦

ردمك: ٢٢٨-٣-٢٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى ١٩٩٦م

الطبعة الثانية

١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

حقوق الطبع محفوظة للناسر

الناسر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

عادَ عبدُ القادرِ الفرديُّ إلى بيته للغداء ، فحاصره أطفاله الخمسة ، وأحاطوا به ، وأخذوا يصيحون :

- عَطْلَةٌ ! عَطْلَةٌ ! رِحْلَةٌ ! رِحْلَةٌ !

ووقفت أمُّهم ، الحاجةُ مليكةُ ، تنظرُ إليهم وإليه ضاحكةً .
فسألها :

- ماذا يريدون ؟

- يريدون الذهابَ إلى مصطفى شاطي . فقد نجحوا جميعاً في الامتحانات ، وانتهت السنة الدراسية ، ولم يعودوا يحتملون البقاء في هذه المدينة الخائقة الحرَّ ! وأنا معهم فيما يطلبون !

ففضَّ الفرديُّ الأطفالَ عنه ، وقال :

- لتغدَّ أولاً ، ثم نفكِّر في الموضوع !

كانَ عبدُ القادرِ الفرديُّ معروفاً بينَ زملائه السماسرة بعبدِ القادرِ الغلاء ؛ لكثرة ما يردّدُ الكلمة ، ولُبُخِله الشديدِ

وحرصه على كسب الصفقات العقارية، ولو بطرق غير
شريفة عند أهل المهنة !

وكان يُقتر على نفسه وعياله . لم يأخذهم ولو مرة واحدة،
للتنزه في الغابة أو الجبل أو في بلد شاطئي لرؤية البحر
والسباحة !

وحين كبروا، بدأوا يسمعون من رفاقهم في المدارس عن
رحلاتهم ومغامراتهم على شواطئ البحر وفي الغابات
والجبال، أخذوا يغارون منهم، واتفقوا على مطالبة والديهم
برحلة، حتى لا يبقوا عرضة للسخرية والتشفي !

ولم ينفعه معهم التماوتُ وادعاء الفقر وكساد سوق العقار،
فوعدهم بأن يفكر في الموضوع . واعتبر الصغار وعده بالتفكير
وعداً بالتنفيذ، فتصايحوا، وتراقصوا فرحين . و«تشقلب»
صغارهم على الحصير كالبهلوانات، وكأنهم فعلاً على شاطئ
البحر .

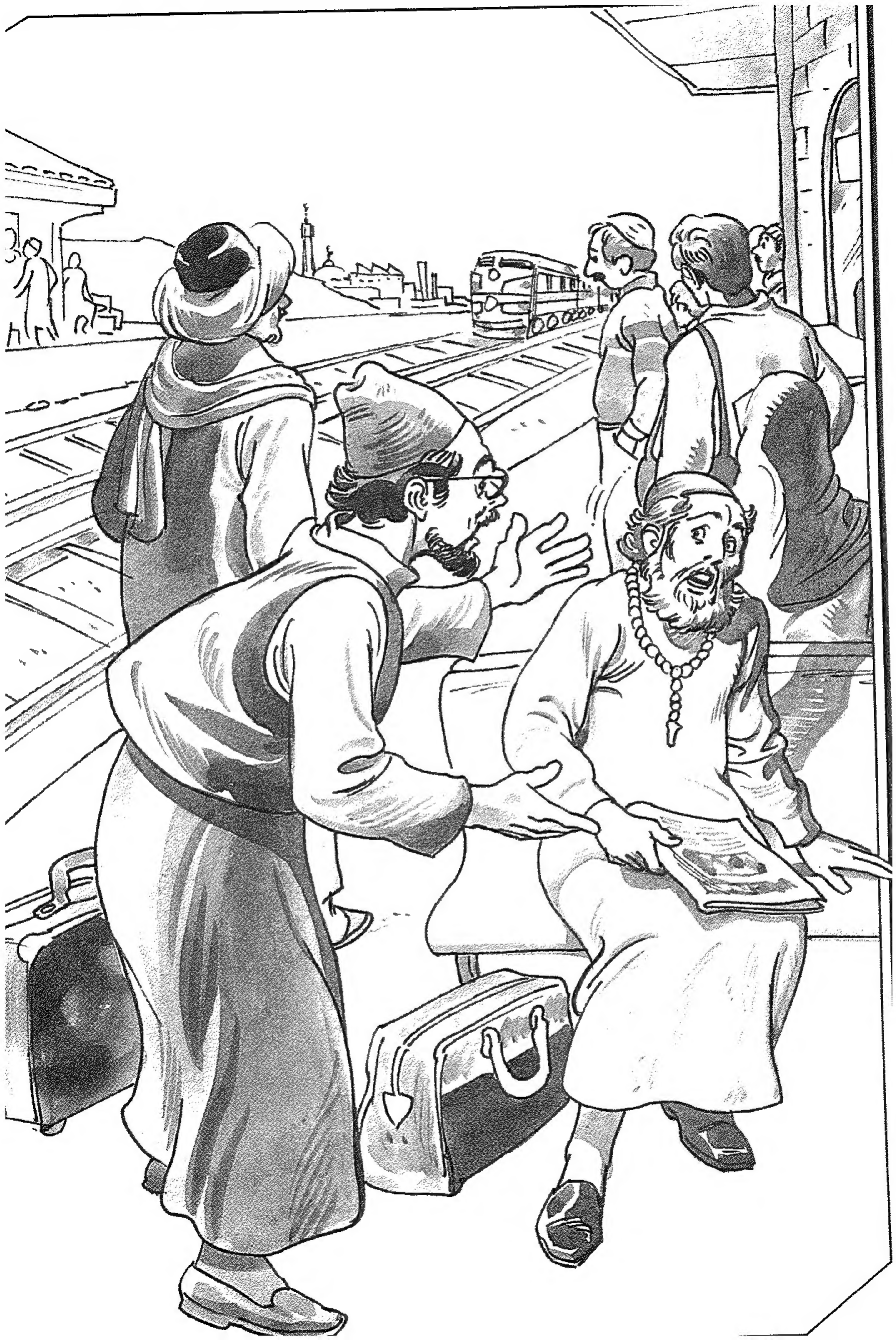
وشغله الأمر، فبات الليلة يقلبه على جميع وجوهه . وفي
الصباح اهتدى إلى حلّ عده عبقرياً . . .

بعد الإفطار، لبس أحسن ثيابه، وذهب إلى محطة القطار،
تاركاً وكالته العقارية لمساعدته الشاب. ووقف على باب المحطة
يمسح وجوه المسافرين بعينين ماكرتين، يزيدُهُما زجاج النظارة
السميك ضيقاً وحدّةً، إلى أن وقع بصره على وجه رجل مُلتح
معمّم، يرتدي جلباباً صوفياً أبيض، وفي عنقه سبحة غليظة
الحبات، وعلى وجهه آثار النعمة، وغير قليل من السذاجة
والغفلة !

فتسلّل خلفه حتّى وصل الرجل إلى شباك التذاكر. وأنصت
الفرديّ إلى بائع التذاكر، فسمعه يناديه بالحاجّ الطيّب،
ويسأله عن أحوال أهله وبلده «طنجة»، وذلك ما كان يريد !
وحين اشترى الحاجّ الطيّب تذكرته، وخرج من الصف،
اعترض الفرديّ طريقه، وواجهه، وأخذ يحملق في وجهه
ويدقق النظر فيه . . . ثمّ رفع ذراعيه بطريقة مسرحية وصاح :

- الله أكبر ! الله أكبر ! لقد صدق وعده ! لا إله إلا الله !

كلّ هذا والحاجّ الطيّب ينظر إليه في دهشة من يظن بعقله
الظنون !



فتقدّم منه عبدُ القادرِ الفرديُّ ، وأمسكَ برأسِهِ وقبَّلهُ ، وقالَ

لهُ :

- سيدي الحاجُّ ، لا تؤاخذني ! فقد جئتُك قاصداً ، وما كنتُ أظنُّ أنني سألقاك ؛ فقد رأيتُك في منامي في رؤيا ، بعد صلاةِ الفجر . . . رأيتُك هكذا ، كما أراك الآن ، في هذه المحطة ، وفي هذا الوقتِ خاصة ! فتركتُ شُغلي ، وجئتُ أجري لأتأكّد من صحّةِ الرؤيا . . . وها أنتَ أمامي بكلِّ روائك وبهائِك ! سُبْحانَ الله !

ثم أمسكَ بيده ، وقبَّلهَا ، والرجُلُ يسحبُهَا مِنْهُ ، ويستغفرُ اللهَ ، وقالَ :

- أرجوكم ، يا سيدي الحاجُّ الطيبُ ، أن تستجيّبوا لدعوتي ، وتلبّوا رغبةَ أهلِ بيتي ، وتشاركونا طعامنا ، ولتدعوني ولأهلي برضا الله في الدنيا والآخرة . . .

ولم يملكِ الحاجُّ الطيبُ إلا أن ينزلَ عندَ رغبةِ هذا الرجلِ البركةِ الذي رآه في منامِهِ ، وخاطبَهُ باسمِهِ ، وهو لا يعرفُهُ . . .

فردّ التذكرة إلى بائع التذاكر، وصحب عبد القادر الفردي في
سيارته العتيقة إلى بيته، حيث قدّمه إلى أولاده الخمسة على أنه
عمُّهم من طنجة... . وحين سمعوا طنجة فرحوا فرحاً شديداً،
وأخذوا يتراقصون، ويغنُّون أغنية:

يا طنجة يا العالية عالية بسواريهـا

واستبشروا بقضاء عطلة صيفية طويلة على شواطئها الجميلة !
وأسكتهم والدهم حتّى لا يكشفوا اللعبة للحاجّ الطيّب !
وكان عبد القادر الفردي لا يطلق على أولاده إلا الأسماء
التي تجلبُ الحظَّ أو تتفاءلُ به، مثل عبد الغني وعبد الرزاق
وفوزيّة ورابحة وخيرية.

وأدخل الفردي ضيفه إلى أحسن غرف البيت، وأحضر
الشاي والحلوى. وبعد صلاة الظهر، عاد به للغداء. وفي
المساء أخذهُ إلى «مسجد بدر» لصلاة المغرب والعشاء. وتعشى
عنده، وبات تلك الليلة، الأمر الذي استغرب له الأطفال
جدّاً، وظنُّوا أنّ والدهم أُصيب بنوبة سخاءٍ حادة مفاجئة،

أو خرج عن عقله !

وأصرَّ الفرديُّ على بقائه معهم ثلاثة أيام، ولكنَّ الحاجَّ الطيِّب اعتذرَ بشغلٍ عاجلٍ ينتظرُه في طنجة، ويتعلَّق ببعض حقوقِ الناسِ التي يخشى الله من التفريطِ فيها.

وعادَ الحاجُّ الطيِّبُ إلى طنجة، وما كادَ يصلُ إلى بابِ منزله حتَّى فوجئَ بمنظرٍ عبدِ القادرِ الفرديِّ وجميعِ أفرادِ أسرته، وهم يُنزلونَ حقائبَهُم من فوقِ السيارةِ العتيقة . . !

ورغمَ أنَّه ارتبكَ قليلاً، فإنه أظهرَ له من الترحيبِ والسرورِ بمقدمِهِ ما يليقُ بكبارِ الضيوفِ . . . وقدَّم الضيوفَ إلى أفرادِ عائلته . وأنزلتهم السيدةُ رُقَيَّةُ في أحسنِ عُرفِ المنزلِ القديمِ الفسيحِ وأكبرها .

وعلى مائدةِ العشاءِ الفاخرِ أعادَ عبدُ القادرِ قصةَ رؤياه الربَّانيَّة، وأضافَ إليها أنَّه رأى الدارَ كذلك ووجوهَ سكانِها . . . ورفعَ كَفَّيه إلى السماءِ، وأخذَ يدعُو ويبتهلُ إلى الله أنْ يحشره هوَ وعائلته معهم في جنةِ النعيمِ المقيمِ .

* * *



كان محمدُ المكي في التاسعة عشرة ذكياً واعياً، يتمتع بروحٍ
مَرِحَةٍ، وحاسّةٍ فكاهيّةٍ مرهفةٍ. وكان حديثَ العهدِ بالرجوعِ
من تطوان حيثُ كان يدرّسُ في الثانوي. وكان يتشوّفُ إلى
قضاءِ عطلةٍ صيفيّةٍ ممتعةٍ مع أصدقائه ومعارفهِ الذين يدعُوهم
إلى بيتِهِ للسمرِ، وتبادلِ الأفكارِ والآراءِ والذكرياتِ القديمةِ،
ويحكّونَ ما حدثَ لكلِّ منهم بعدَ افتراقِهِم في أواخرِ الصيفِ
الماضي، خصوصاً صديقَ صباهُ وابنَ خالَتِهِ عبدَ السلامِ زيانَ،
الذي لم يكنُ يفارقهُ، والذي دخلَ ميدانَ التمثيلِ.

وعزّى المكيُّ نفسَه بأنَّ الضيوفَ لا بُدَّ ذاهبونَ، بعدَ يومٍ أو
يومينِ، إذا لم يذهبوا قبلَ ذلك.

وفي أولِ لقاءٍ لمحمدِ المكي بعدِ القادرِ الفرديّ، لم ترتَحِ
نفسُه إليه بالمرّةِ، وقالَ لأُمّه: «هَذَا الرَّجُلُ نَصَابٌ!».

وسمِعَهُ أبُوهُ، فاستعاذَ باللهِ، ووبَّخَهُ، وقالَ لَهُ: «إِنَّ هَذَا
الرَّجُلَ رَجُلٌ صَالِحٌ»، وحكّى لَهُ كَيْفَ أَنَّ الرَّجُلَ رَأَاهُ فِي رُؤْيَاهُ،
ومحمدُ المكيّ ينصتُ صامتاً خافضَ الجناحِ لوالِدِهِ حتّى لا
يغضِبَهُ.

وأنهى الحاجُّ المكي محاضرتَه لابنِه بقولتِه المشهورة: «من خدعنا بالله انخدعنا له!». .

وكان كثيراً ما ينخدعُ بالمهرجينَ والطفيلينَ والمحتالينَ .

ومرَّت ثلاثةُ أيامٍ دونَ أن يبدؤَ على الضيوفِ السبعةِ أنَّهم س يلتزمونَ بمدةِ ضيافةِ النبي التي هي ثلاثةُ أيامٍ، حسبَ التقاليدِ المتَّبعةِ .

واكتشفتُ عائلةُ الحاجِّ الطيبِ الصغيرةُ المهدبةُ المنضبطةُ أنَّ أسرةَ عبدِ القادرِ الفرديِّ أسرةٌ عديمةُ التربيةِ، جاهلةٌ بأبسطِ قواعدِ السلوكِ الاجتماعيِّ المقبولِ، وكانَ الأطفالُ قليلي الأدبِ على المائدةِ، شرَّهينَ على الطعامِ، يمدُّونَ أيديهمُ، أثناءَ الأكلِ، إلى ما هوَ أمامَ غيرِهِم، ويتكلمونَ وأفواههمُ عامرةٌ، وبأصواتٍ عاليةٍ، ويتشائمونَ ويتعاركونَ، فيسلُّ أبوهمُ حزامهَ الجلديَّ العريضَ، ويقومُ من مجلسِه ليهويَ بِهِ عليهمُ، والحاجُّ الطيبُ يحملُ غيرَ مصدِّقٍ، ويرجّاهُ الكفَّ عن الضربِ . . .

وبعدَ سبعةِ أيامٍ، كانتُ أسرةُ عبدِ القادرِ الفرديِّ قد

استقرت في الدار، وأخذت تسير على عادات ثابتة لا تُنبى
بالتفكير مطلقاً في الرحيل !

وصارت زوجةً الفرديّ تتمنى في البداية على زوجة الحاج
الطيب بعض أنواع المأكولات الخاصة بالمنطقة، وتمدحها لها،
ولكنها في النهاية أخذت تشترط ما يجب أن تُحضره المضيفة
للإفطار والغداء والعشاء وشاي المساء .

وكان عبد القادر الفرديّ يذهب مع الحاج الطيب إلى دكانه في
الصباح، ويعود معه في وقت الغداء . وفي المساء، كان يخرج
وحده للتجول في المدينة، لعله يجد فرصة لعقد صفقة عقارية .

أما زوجة الفرديّ، فكانت تترك مائدة الإفطار هي
وأولادها، دون أن تكلف نفسها حتى عناء حمل كأس أو طبق
للمساعدة في غسله، أو الدخول مع الحاجة رقية إلى المطبخ،
أو حتى ترتيب الغرفة التي تنام فيها هي وأسرتها، بل كانت
تركها كحظيرة بهائم !

وبدلاً من أن تساعد في شيء ما، كانت تقعد إلى الهاتف،

وتنادي كل من تعرفهم ، داخل البلد وخارجه ، للحديث معهم الساعات الطوال في توافه الأمور ، وتفتخر عليهم بأنها تقضي وأسرتها عطلة الصيف في زين المدائن ، طنجة العالية ! وتضحك حتى تظهر أسنانها المسوّسة !

وكان محمد المكي حين يراها وساعة الهاتف لاصقة بأذنها طوال ساعات الصباح ، وكأنها ولدت بها ، يغلي دمه غضباً ، ويقول لأمه ، مهدداً ، بأنه سينزع الساعة من يدها ، ويهوي بها على رأسها ، أو يخنقها بحبل الهاتف ! كان يعرف أن فاتورة الهاتف وحدها ستخرب ميزانية الأسرة مدة عام كامل أو أكثر ! ولكن أمه كانت تهدئه وتصرفه عن ذلك قائلة :

« في سبيل الله ! كله مخلوف عند الله ! »

وتضيف :

« إن الرجل ذو مال ، كما قال لي والدك ، ولا بد أنه سيساهم في نفقات البيت بشيء ! » .

ولكن لم يعد عبْدُ القادرِ الفرديِّ إلى البيتِ طوالِ المدة ولو
ببَصَلَةٍ ! بل كانَ يستلِفُ منَ الحاجِّ الطيبِ لشراءِ بعضِ ما لا
تسحُو نفسُه بشرائه !

أمَّا الأطفالُ فكانوا يتركونَ البيتَ في حالةِ فوضى وقذارة
تسمِزُ منها النفوسُ ! ويأخذونَ كلَّ يومٍ مجموعةً منَ القُوطِ
النظيفةِ معهم إلى البحرِ، ولا يعودونَ إلا ساعةَ الغداءِ بها
وسِخةً مشبعةً بالرمالِ، وهم جائعونَ كالذئابِ . . .
ويتخاصمونَ على الحمامِ، ويتركونَ أرضه مكسوَّةً برملِ البحرِ
والملابسِ الوسخة !

واشتدَّ الضغطُ على الخادمةِ التي عاشت في الدارِ أكثرَ من
عشرِ سنينَ، فهربتْ إلى حيثُ لا يدري أحدٌ ! ونزلَ الحملُ
على الأمِ المسنَّةِ والبنتينِ المدلَّلتينِ، وأخذَ الحاجُّ يأتي كلَّ يومٍ
بخادمةٍ لغسلِ الملابسِ، وأخرى للمساعدة في المطبخِ والنظافةِ
العامةِ .



ولم تكتفِ زوجةُ عبدِ القادرِ الفرديِّ بإثقالِها وأسرَتِها على
الناسِ ، بل جاءتْ معها بعائلةٍ أخرى من أقاربِها ، مكونةٍ من
سبعةِ أفرادٍ ، كانت تبحثُ عَنْ مكانٍ للسكنى في أحدِ أحياءِ
المدينةِ فاستضافتها . . . وأصبحَ البيتُ جحيماً لا يطاقُ !

ولم يعدْ محمدُ المكيُّ يجدُ مكاناً له على المائدةِ الثانيةِ ولا
الثالثةِ ، فصارَ يأكلُ وجباتِهِ خارجَ البيتِ ، أو في بيتِ صديقه
عبد السلامِ زيانَ .

وفي الليلِ لمْ يُعَدِّ يَجِدُ غِطاءً ولا وِسادةً ، فكان ينتظرُ حتى
ينامَ أَحَدُ الضيوفِ ، فيأخذُ الوسادةَ مِنْ تحتِ رأسِهِ والغطاءَ مِنْ
فوقِهِ ، ويركضُ بِهِما إلى غُرفَتِهِ ، ويقفلُها عليه ! فصارَ كُلُّ
واحدٍ يربُطُ غِطاءَهُ ووسادَتَهُ بحبلٍ إلى رجلِهِ أو يَدِهِ !

وفي الليلةِ الأولى لهذهِ العمليَّةِ ، قامتْ معركةٌ بينَ المكيِّ
وأحدِ الأولادِ في الظلامِ ، حينَ ضبطَهُ الولدُ متلبساً باختلاسِ
لحافِهِ ! ولكنَّ المكيَّ عادَ في اليومِ التالي مسلحاً بسكينٍ حادةٍ
قطعَ بها الحبلَ ، وأخذَ الغطاءَ . وحينَ أيقظَ البردُ صاحِبَهُ ، كانَ



الوقتُ قد فاتَ لإرجاعِهِ ، فتسلَّلَ بينَ النائمينَ يبحثُ عنُ
ضحيةٍ ، وداسَ في طريقهِ بطنَ طفلٍ ، فصاحَ هذا ، واستيقظتْ
أمُّه ، واشتبكتْ في معركةٍ معَ المتسلِّلِ !

ورغمَ تقاربِ سنِّه وسنِّ أكبرِ أبناءِ الفرديِّ ، فلمَ تتكوَّنَ بينهما
علاقةٌ مودةٍ ، بلْ كانَ ينظرُ إلى جميعِ أفرادِ الأسرةِ الطفيليةِ ،
خصوصًا والدَّهْمَ ، على أنَّهم تترُّ وغجرُّ وطفيلياتٌ بشريةٌ تعيشُ
على امتصاصِ دماءِ المغفلينَ !



وفي اليومِ الثاني عشرَ أحسَّ عبدُ القادرِ الفرديُّ بتبرُّمٍ
مضيفيه بِهِ وبأسرَّتِهِ ، فادَّعى المرضَ ، وباتَ الليلةَ يئنُّ
ويتأوَّهُ . . . وقالَ للحاجِّ الطيبِ :

«حينَ قررتُ العودةَ ، أحسستُ بهذهِ الوعكةِ ، وكأنَّها عقابٌ
لي على الرغبةِ في مفارقتِكُم ! ويبدو أنَّ الإرادةَ الربانيةَ لمَ تأذنْ لي
بالرحيلِ عنكُم بعدُ !» .

فاضطرَّ الحاجُّ الطيبُ إلى مجاملتِهِ بقوله :

«هَذِهِ دَارُكُمْ ، وَنَحْنُ إِخْوَانُكُمْ فِي اللَّهِ !» .

فَأَخَذَ عَبْدُ الْقَادِرِ يَدْعُو لَهُ بِالْبَقَاءِ ، وَطَوَّلَ الْعَمْرَ ، وَفِيضَ

الرِّزْقِ .



وَكَانَ الْحَاجُّ الطَّيِّبُ قَدْ أَنْفَقَ آخَرَ دِرْهَمٍ فِي حَسَابِهِ ، وَأَخَذَ

يَفْكُرُ فِي بَيْعِ دَارٍ مِنْ أَمْلاكِهِ الْقَلِيلَةِ ، لِيَنْفِقَ مِنْهَا عَلَى ضَيْوْفِهِ .

وَسَمِعَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ الْمَكِّيُّ ، وَهُوَ يَكْلُمُ وَكِيلًا عَقَارِيًّا ، فَأَخَذَ

السَّمَاعَةَ مِنْ يَدِهِ ، وَأَعَادَهَا إِلَى مَكَانِهَا ، وَنَادَى أُمَّهُ ، فَأَقْفَلَ

الْحَاجُّ بَابَ الْغُرْفَةِ حَتَّى لَا يَسْمَعَ الضُّيُوفَ مَا يَسُوءُهُمْ ، وَجَرَتْ

بَيْنَ الثَّلَاثَةِ مَنَاقِشَةٌ حَادَّةٌ حَوْلَ مَا يَنْبَغِي عَمَلُهُ . فَقَالَ الْحَاجُّ

الطَّيِّبُ مُسْتَسْلِمًا :

«أَنَا بِذَلِكَ جُهْدِي . وَلَا يُمْكِنُ أَنْ أَطْرُدَ الضُّيُوفَ مِنْ بَيْتِي .

وَعَلَيْكُمْ أَنْتُمْ أَنْ تَبْحَثُوا عَنِ الْحُلِّ ، وَإِلَّا بَعَثْتُ الدَّارَ لِأَوَّلِ

مَسَاوِمٍ !» .



وخرج محمد المكي مهمومًا إلى صديقه عبد السلام زيان،
وشكا له المصيبة التي نزلت بهم، والمحنة التي تجتازها أسرته.
وكان زيان شابًا عمليًا خصب الخيال، لكثرة ما شاهد من
الأفلام السينمائية، فرثى لحال صديقه، ورفع رأسه وحاجبيه
بطريقة مسرحية، وقال له :

« لا تقلق يا أخي ، فقد جاءك المنقذ ! » .

وافترقا على أن يلتقيا بدار محمد المكي ، بعد صلاة المغرب .
وكان اليوم يوم خميس . وهو اليوم الذي يسهر فيه الحاج الطيب
مع أصدقائه في حلقة القرآن والذكر ، وتذهب أمه لزيارة أختها
الكبرى وتبيت عندها .



وحضر زيان والدار شبه خالية . فقد كان عبد القادر
الفردى وأسرته يخرجون للتسكع في شوارع المدينة الكبيرة ،
المنورة والمزدحمة بالسياح . وأحضر معه حقيبة كبيرة فتحها في
غرفة المكي ، وأخرج منها عدداً من الأدوات الغريبة والأقمشة
والعلب ، ثم جلس يشرح للمكي خطته الرهيبة . . .

وسرَّ المكيَّ بالخطَّةِ سروراً عظيماً، فكانَ يقاطِعُ شرحَ صديقِهِ
بالضَّحِكِ العالِي والضَّرْبِ على ظَهْرِهِ وكَفِّهِ في تَواطُؤٍ وإعجابٍ!

* * *

وما انتهت صلاةُ العشاءِ حتَّى امتلأتِ الدارُ بالضيوفِ
وضيوفِ الضيوفِ ! وكانتِ الفتاتانِ المرهقتانِ حفصةً وسعادُ
قد أعدَّتَا، قبل خروجهما مع أمهما، مائدتينِ كبيرتينِ لتسعَا
للعددِ الكبيرِ مِنَ الناسِ الذينَ لا تعرفانِ حتَّى أسماءُهُم . . .
وتعشى محمدُ المكيُّ وعبْدُ السلامِ زيانَ هذهِ المرةِ معَ
الضيوفِ، على غيرِ عادتيهما . وبعدَ العشاءِ جلسَا حولَ صينيةِ
الشاي يتحدَّثانِ .

وبمِهارةٍ عجيبةٍ تطرَقَا بالحديثِ إلى الدارِ التي هُمَ فيها، وإلى
تاريخِها العجيبِ، وكيفَ أنَّها كانتِ مسكونةً بأرواحِ أسرةٍ من
سبعةِ أفرادٍ وُجِدُوا مشنوقينَ في سقْفِها، دونَ أنْ يُعرَفَ الفاعلُ
حتى الآنَ ! وكيفَ أنَّهم يظهرونَ مرةً كلَّ سنةٍ، في مثلِ يومِ
شنقهم خصوصاً، فيجوبونَ الغُرفَ بأجسامٍ شفافةٍ، أو هياكلَ
عظميةٍ منورةٍ تتدلَّى من السقفِ العالِي، أو مجردِ رؤوسٍ مقطوعةٍ

يتقاطرُ منها الدمُّ بكلِّ مكانٍ ، وهي تبكي وتولولُ وتصرخُ
وتعولُ ، خصوصاً إذا حلتْ بالدارِ روحٌ شريرةٌ أو قلبٌ شحيحٌ
طماعٌ . . . وتحوّل الدارُ كلّها إلى مأتمٍ ، وتنقلبُ أرواحُ الأمواتِ
إلى أرواحِ ذئابٍ وثعالبٍ تعوي ، وتملأُ الفضاءُ رُعباً وهلعاً !
وقالَ المكيّ مهوناً الأمرَ : « ولكنّ ذلكَ لم يحدثْ منذُ سنتينِ .
فلا بُدَّ أنّهم ماتوا ، واستراحتْ أرواحُهم من عذابِها . . . » .
فعارضه زيانٌ قائلاً : « كلا ! وأنتَ الصادقُ ، أنسيتَ حادثةَ
الهاتفِ ؟ » .

فقالَ المكيّ : « صدقتَ . . . غابتَ عن بالي تماماً . لا أدري
كيفَ نسيْتُها ، وقد حدثتْ في الشتاءِ الفارِطِ فقط ! » .
وانفتحتِ الشهياتُ لحكايةِ الهاتفِ ، وصاحَ الأطفالُ :
« احكُوا لنا حكايةَ الهاتفِ . . . احكُوا لنا ! » .

فقالَ المكيّ : « في الشتاءِ الماضي ، جاءتنا من مراكشِ ضيفةٌ
صديقةٌ لأختي ، واجتمعَ عليها بناتُ الجيرانِ . وبعدَ العشاءِ
جلسنَ يتسامرنَ ، ويحكينَ النكاتِ ويتصاحكنَ . وبينما هنَّ
كذلكَ ، رنَّ جرسُ الهاتفِ ، فالتقطتهُ أختي حفصةُ ، فإذا



بصوتِ رجلٍ يطلبُ منهنَّ خفضَ أصواتِهِنَّ لِيَسْتَطِيعَ النومَ .
فوعَدَتْهُ حفصةٌ بذلكَ وعادتْ إلى الجماعةِ ، وأخبرتْهُنَّ . فأقفلنَ
بابَ الغرفةِ ، وأسَدَلْنَ الأستارَ الكثيفَةَ ، وعدْنَ إلى سمرِهِنَّ .
وما هي إلا لحظةٌ حتى رنَّ الهاتفُ ، وإذا الرجلُ نفسُهُ يشتكي
من الإزعاجِ . فأنحازتِ البناتُ إلى أحدِ الأركانِ البعيدةِ عن
بيوتِ الجيرانِ ، وأخذنَ يتحدثُنَّ بهميسٍ لا يكادُ يسمعُ ! فإذا
بالهاتفِ يرنُّ مرةً أخرى ، وإذا الرجلُ غاضبٌ هائجٌ يهدِّدُ
ويتوعدُّ بأنَّه سيأتي بنفسِهِ لإسكاتِهِنَّ ! ولم يَكُنْ في البيتِ رجلٌ ؛
فقدُ كانَ الوالدُ مسافراً ، وأنا في السينما .

وَحِينَ عَدْتُ إِلَى الْبَيْتِ ، وَجَدْتُهُنَّ فِي حَالَةٍ خَوْفٍ شَدِيدٍ . . . وَحِينَ حَكَيْتُ لِي مَا حَدَّثَ ، اسْتَغْرَبْتُ كَثِيرًا .

فَالْمَنَازِلُ الْمَحِيطَةُ بِالْأَدَارِ كُلُّهَا لِنَاسٍ نَعْرِفُهُمْ جَيِّدًا ، وَلَنَا بِهِمْ عِلَاقَةٌ طَيِّبَةٌ ، وَيَسْتَحِيلُ أَنْ نَزْعَجَهُمْ ، لِبُعْدِ الدِّيَارِ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ ، وَكَبَرِ حَجْمِهَا ، وَسَمَكِ جُذُرَانِهَا . وَحَتَّى لَوْ أَزْعَجْنَاهُمْ ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَلْجَأُوا إِلَى التَّهْدِيدِ بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ ! إِلَى جَانِبِ أَنَّ الدَّارَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي كَانَ بِهَا هَاتِفٌ فِي الْحَيِّ هِيَ دَارُنَا !

وكان الهاتفُ يومَها غيرَ آلي ، بمعنى أنَّ المكالماتِ تتمُّ عبرَ موزعٍ بالبريد .

فرفعتُ الساعةَ ، وكلمتُ الموزعَ الليليَّ ، فإذا به صديقٌ ، وسألتهُ عن صاحبِ المكالمَةِ الغريبةِ ، فقالَ مندهشًا : أيةُ مكالمَةٍ ؟ أنا هنا منذُ المغربِ ، ولمَ أوصِّلْ لدارِكُم أيةَ مكالمَةٍ بالمرَّةِ ! هذهِ ليلةٌ هادئةٌ جدًّا » .

وكان المكيُّ وزيانُ يقرآنُ الرُّعبَ في عيونِ القطيعِ البشريِّ الغبيِّ . وكلِّما حكيا قصةً من هذا النوعِ ، اقتربَ الصغارُ من الكبارِ ، وضاقَتِ الحلقةُ حتَّى تكتلَ الجميعُ في ركنٍ واحدٍ ! وللقضاءِ على ما تبقى من شجاعةٍ وثباتٍ في نفوسِ الكبارِ ، حكى المكيُّ عن والِدِهِ أنه ذاتَ شتاءٍ استيقظَ لصلاةِ الفجرِ ، وحينَ دخلَ الحمامَ وجدَ بهِ جديًّا ضخماً كبيرَ القرنينِ . فظنَّ الوالدُ أن أحداً من شركائِهِ بالباديةِ جاءَ بِهِ إليه ، وأن الوالدةَ وضعتُهُ هناكَ ، ونسيَتْ أن تخبره . وحاولَ الوالدُ تجنُّبَ الجديِّ والمرورَ حوله إلى كرسيِّ وضوئِهِ ، فاعترضَهُ الجديُّ وتجنَّبهُ الحاجُّ ، وقصدَ الناحيةَ الثانيةَ ، فاعترضَهُ ، مرةً أخرى فما

كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ أَمْسَكَ بِقَرْنَيْهِ، وَسَحَبَهُ، لِيُخْرِجَهُ مِنَ الْحَمَامِ إِلَى
وَسْطِ الدَّارِ. وَرَفَضَ الْجَدِيُّ الْخُرُوجَ. وَأَخَذَ الْوَالِدُ يَجْرُهُ مِنْ
قَرْنَيْهِ، وَالْآخَرُ يَقَاوِمُ، وَجَذَبَهُ جَذْبَةً قَوِيَّةً، فَانْفَصَلَ الرَّأْسُ عَنْ
جَسَدِ الْجَدِيِّ، وَاخْتَفَى الْحَيَوَانُ تَمَاماً، وَكَأَنَّهُ تَبَخَّرَ، وَبَقِيَ
الرَّأْسُ فِي يَدَيِ الْوَالِدِ ! بَقِيَ الرَّأْسُ حَيًّا يَنْظُرُ إِلَى الْوَالِدِ بِعَيْنَيْهِ
الْكَبِيرَتَيْنِ الْجَاחِظَتَيْنِ، وَيَقُولُ بِكَلَامٍ وَاضِحٍ : « هَلْ أَعْجَبَكَ مَا
فَعَلْتُ ؟ ! هَلْ أَنْتَ رَاضٍ عَنْ عَمَلِكَ الْآنَ ؟ ! » .

قَالَ الْمَكِّيُّ مُتَأَثِّراً : « فَأَصَابَ الْوَالِدَ رَعْبٌ شَدِيدٌ، وَرَمَى
الرَّأْسَ، وَخَرَجَ مِنَ الْحَمَامِ يَتَرَنَّحُ، وَقَدْ خَارَتْ رَكْبَتَاهُ، فَسَقَطَ
بِالْمَرَّةِ ! وَقَضَى أَيَّاماً فِي الْفَرَاشِ، يَعْانِي الْحُمَّى وَالْكَوَابِيسَ أَثْنَاءَ
النَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ ! » .

وَكَانَتِ السَّاعَةُ قَدْ تَجَاوَزَتِ الْوَاحِدَةَ لَيْلاً حِينَ أَوَى الضُّيُوفُ
إِلَى مَرَاقِدِهِمْ، دُونَ أَنْ يَغَيِّرُوا مَلَابِسَهُمْ، أَوْ يَحْكُوا أَسْنَانَهُمْ !
وَبِمَجَرَّدِ مَا انْطَفَأَتِ الْأَضْوَاءُ قَامَ الْمَكِّيُّ وَزِيَانُ لِإِعْدَادِ
خَطِيئَتِهَا الْإِرْهَابِيَّةِ . وَلَمْ يَنْتَهِيَا إِلَّا بَعْدَ سَاعَتَيْنِ مِنَ انْطِفَاءِ
الْأَضْوَاءِ، وَاسْتَغْرَاقِ الضُّيُوفِ فِي النَّوْمِ .

وفجأةً، وفي هدأة الليل، انطلقت صرخة رعب هائلة داخل غرفة النوم الكبيرة، أيقظت جميع النائمين فيها. وأعقبته أصوات عويل وعواء كعواء الذئاب... وجلس الضيوف يملقون في الظلام الدامس، وأسنانهم تصطك من الرعب، وهم لا يعرفون أين هم...

وفي هذه اللحظة دخل الغرفة هيكلان عظيمان، وارتفع حولهما الزعيق والصفير، ودقت النواقيس والصنوج، واقترب وجهها الهيكلين من وجوه النساء والأطفال، وطققت أسنانهم، وارتمى الأطفال في أحضان أمهاتهم، وهن ذاهلات عنهن...

وحاولت أشجع النساء إشعال النور، فاشتعلت نار بيضاء على أرض الغرفة كادت تلمس السقف ثم انطفأت...! وفي ضوءها ظهرت لهم رؤوس ووجوه مدلاة من السقف تقضض أسنانها، وتنشد بأصوات منشارية:

الويل الويل فاض الكيل !

الويل الويل فاض الكيل !

وبداً الدمُ يقطرُ من أعناقِهَا المحزوزة فوق رؤوس الضيوف
ووجوهِهِم ، وهم يتغطّون منه بالأزرِ والبطانيات .

وفجأة هبت ریحٌ قويّةٌ ، وعلاً هريراً ونباحٌ ، وكأنّ الدارَ
امتلات بالكلابِ ، وانصفت جميعُ الأبوابِ ، وعلاً صوتُ
امرأةٍ تصرخُ : «دمي . . . دمِي . . . دمِي ! عيني . . .
عيني . . . عيني !» .

وبدأت الكلابُ تهرُّ ، وكأنها تنهشُ المرأةَ المعذّبة !
وفي غرفةٍ بالدورِ العلويّ ، كان ينامُ عبدُ القادرِ الفرديُّ
وصديقُه عبدُ العظيمِ المضروبُ . فاستيقظا على صراخِ النساءِ
والأطفالِ . وحاولا النهوضَ ، فلم يستطيعا . . . أحسّا بثقلٍ
هائلٍ فوقهُما ، يمنعُهُما من الحركةِ تماماً ! وحاولا الصراخَ ،
فخرجَ من جوفيهما فحيحٌ صامتٌ كفحيحِ الأفاعي أخافهُما !

وبعدَ بضعِ دقائقٍ منَ الرعبِ الشديدِ وضيقِ التنفّسِ ، انزاحَ
الكابوسُ الثقيلُ عنهُما ، ورانَ على الدارِ هدوءٌ مريبٌ ، وسُمعَ
صوتُ الرجلينِ الحبيسينِ في غرفتيهما بالدورِ العلويّ ، وهما
يحاولانِ فتحَ البابِ المقفلِ من الخارجِ ، ويسألانِ ماذا يحدثُ ؟



وفتحت يدٌ خفيّة البابَ لهما، فخرجّا، ونزلا إلى غرفةِ النساءِ والأطفالِ .

وكانَ محمدُ المكيُّ وعبدُ السلامِ زيانَ يقفانِ خلفَ مصراعي البابِ، وقد احمرَّ وجهاهُما من كَبَتِ الضحكِ ! كانَ كُلُّ منهما يرتدي معطفًا أسودَ على جسديهِ العاري وقد رسمَ عليه بالفسفورِ صورةَ هيكلٍ عظمي .

وحينَ توجّهَ الرجلانِ نحوَ السُّلمِ، سَمِعَا حركةً خلفَهُما، والتفتا، فكشَفَ المكيُّ، وزيانُ عن جسديهِما، فلمعَ الهيكلانِ العظميَّانِ في الظلامِ الحالكِ . وصرخَ الرجلانِ، واندفعَا لينزلا السُّلمَ، فسقطا، وتدحرجا إلى أسفلِهِ مثلَ كرتينِ حيتينِ ضخمتينِ، وهما يحدثانِ هديرًا شبيهًا بـ «دَراه ده ده ده ده ده . . .» .

واشتعلَ نورٌ خلفَهُما، فوقفا، وقد أنساها الذعرُ أوجاعَ السقطةِ . وتوجّهَا رأسًا إلى غرفةِ النساءِ، فوجدَا الجميعَ تحتَ الأغطيةِ في حالةٍ من الرعبِ المشرفِ على الجنونِ !



وَأَخَذَا يَطْمِئِنَانِهِمْ ، وَيَسْأَلَانِهِمْ عَمَّا حَدَثَ . وَبَدَلُ أَنْ يَجِيبُوا ،
قَامُوا جَمِيعاً يَجْمَعُونَ أَمْتَعَتَهُمْ ، وَقَدْ اصْفَرَّتْ وَجُوهُهُمْ ، وَغَارَتْ
عَيُونُهُمْ ، وَارْتَعَشَتْ أَطْرَافُهُمْ ، وَهُمْ يَقْسِمُونَ أَلَّا يَقْضُوا لَيْلَةً
وَاحِدَةً أُخْرَى فِي هَذَا الْبَيْتِ « الْمَسْكُونِ » الْمَلْعُونِ !

وَابْتَعَدَتْ أَصْوَاتُ النَّائِحَاتِ ، وَارْتَفَعَ صَوْتَا الْمَكِيِّ وَزِيَانَ
بِأَيَّةِ الْكُرْسِيِّ ، وَهَمَا نَازِلَانِ فِي قَمِيصِي نَوْمَهُمَا مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ .
كَانَا يَحْمِلَانِ شَمْعَدَانِينَ ، فِي كُلِّ مِنْهُمَا سَبْعُ شَمْعَاتٍ . وَتَوَقَّفَا
بِمَنْتَصَفِ الدَّرَجِ ، وَتَقَدَّمَ زِيَانُ ، وَقَدْ انْعَكَسَتْ أَضْوَاءُ
الشَّمْعِ ، وَتَقَاطَعَتْ عَلَى وَجْهِهِ ، وَجَعَلَتْهُ ، هُوَ الْآخِرَ ، يَبْدُو
كَأَحَدِ الْأَشْبَاحِ ، وَرَفَعَ صَوْتَهُ الْجَهْورِيِّ صَائِحَاً : « يَا أَهْلَ
الْمَكَانِ ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَبِحَقِّ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، إِلَّا مَا
رَجَعْتُمْ إِلَى أَمَاكِنِكُمْ آمَنِينَ ، وَتَرَكْتُمْ ضِيوفَنَا مَطْمَئِنِينَ . . . » .

وَقَرَأَ مَعَا : « اللَّهُمَّ يَا لَطِيفُ نَسْأَلُكَ اللَّطْفَ فِيمَا جَرَتْ بِهِ
الْمَقَادِيرُ . . . » .

كَرَّرَاهَا ثَلَاثَ مَرَاتٍ ، ثُمَّ تَلَى آيَةَ الْكُرْسِيِّ بِخُشُوعٍ كَبِيرٍ . وَفِي
وَسْطِهَا تَلَا شَتْ تَمَاماً أَصْوَاتُ النَّائِحَاتِ . . .

وفي الغرفة الكبيرة توقف النساء والأطفال عن جمع
أمتعتهم، واشتعل النورُ أصفرَ ضعيفاً في البداية، ثم أخذ
يقوى ويتوهج حتى عاد إلى سطوعه القديم.

ودخل المكيّ وزيانُ خلفَ الرجلين إلى الغرفة، وزيانُ يردّدُ
بصوته المسرحي: «كان الله معنا ومعكم!» وينظرُ حواليه إلى
آثارِ الدم على الجدرانِ والمطارفِ وقطعِ الأثاثِ القديمة، وإلى
الوجوه الصفراء، والشفاه الزرقاء المرتعشة، والعيون الغائرة
المحاطة بالسواد...

وقال المكيّ ببراءة طفلٍ خائفٍ: «هل حدث لكم هنا ما
حدث لنا نحن فوق؟».

ولم يجبه أحدٌ. كانوا جميعاً منهمكين في جمع أمتعتهم، فقال
زيانُ: «إنهم هزُّوا بنا الغرفة حتى كادوا يقتلعونها من مكانها،
ويطيطون بها في الهواء!».

فأضاف المكيّ: «وأردنا الخروج والهروب، فلم نستطع...
كنا تحت ثقلٍ هائلٍ مثل كابويس، لا نستطيعُ الحراك ولا
الصياح!».

فقال الحاجُّ المصوبلُ : «تماماً كما حدثَ لنا نحنُ !» .

وقالَ المكيُّ للنساءِ ، وكأنَّه لاحظَ في تلكَ اللحظةِ حركتَهُنَّ
في جمعِ الأمتعةِ :

«ماذا تفعلنَ ؟ ألا تنتظرُنَ حتى تعودَ الوالدةُ ؟ ! ستأسَفُ
كثيراً إذا عادتُ ولم تجدُكنَّ !» .

فقالتُ زوجةُ الفرديِّ : «قلْ لها إذا جاءتُ ، إنَّنا اضطررنا إلى
الذهابِ مبكراً لشغلٍ مستعجلٍ عندَ سيدي عبدِ القادرِ . . .» .
وأضافتُ زوجةُ المصوبلِ عاتبةً : «لو باتتُ معنا الليلةَ ،
ورأتُ ما رأينا ، لما احتجنا إلى تبريرِ ذهابنا المفاجئِ . . .» .

وعلى بابِ الدارِ ، وقفَ المكيُّ وزيانُ يودعانِ الضيوفَ ،
ويطلبانِ منهم العودةَ في الصَّيفِ الموالي ، وهم يحدجونهم
بنظراتٍ شذراءَ ، وكلُّهم يهمسُ بنفسِ الردِّ تقريباً : «إذا رجعنا
فخذونا إلى دارِ المجانينَ !» .

وتحاملتُ زوجةُ عبدِ القادرِ الفرديِّ على نفسها لتقولَ على
وجهِ المجاملةِ : «قولاً للحاجةِ والحاجِّ إننا ننتظرُ زيارتهما في



الربيع القادم . . . الربيعُ عندنا جميلٌ رائع ! » .

فقال المكيُّ : « لا لنَ ننتظرَ حتى الربيعِ ! إننا استأنسنا بكم كثيراً . . . » .

وكانَ المكيُّ وزيانُ يهمسانِ من وراءِ ابتسامتيهما العريضتينِ الصفراوينِ : « ذهابٌ بلا رجعة ! » .
« فلا رجعت ولا رجعَ الحمارُ ! » .

وحين انطلقتِ السيارتانِ ، عَادَا إلى الدارِ ، وقد استولتْ عليهما نوبةٌ ضحكٍ عنيفةٌ ، فاستلقيا على ظهريهما في باحةِ الدارِ ، وأخذَا يرفسانِ الهواءَ ويصرخانَ ! كان فرحُهُما بنجاحِ خطتهما أعمقَ من فرحهما بفوزِ فريقهما الرياضيِّ أو بصيد سمكةٍ ضخمةٍ !

وتوقَّفَ المكيُّ عن الضحكِ ليقولَ لصاحبه : « من قال إنَّ المسرحَ ليسَ فناً هادفاً ؟ ! » .

وقال زيانُ : « هذه سأكفيها لحفَّارِ قبري ! » .

وانخرطاً مرةً أخرى في القهقهةِ والزعيقِ ، ولم يتوقفاً إلا حينَ أحسَّا بوجودِ شخصٍ ثالثٍ معهما في الدارِ . . . ونظراً حولهما ،

فإِذَا الْحَاجُّ الطَّيِّبُ وَاقِفٌ يَتَفَرَّجُ عَلَى مَشْهَدِهِمَا الْمُضْحِكِ ،
وَيُسْمِلُ وَيُخَوِّقِلُ ، وَقَدْ أَخَذَهُ الْعَجَبُ مِمَّا رَأَى ! وَوَقَفَ الْاِثْنَانِ
يَنْفُضَانِ قَمِيصَيْهِمَا ، وَتَقَدَّمَ الْمَكِّيُّ مِنْ أَبِيهِ فَقَبَّلَ يَدَهُ ، كَمَا كَانَ
يَفْعَلُ كُلُّ صَبَاحٍ . وَتَبِعَهُ زِيَانُ قَائِلًا : «صَبَاحَ الْخَيْرِ ، يَا
الْحَاجَّ . . .» .

فَسَأَلَهُمَا الْحَاجُّ ، وَعَيْنَاهُ عَلَى غُرْفَةِ الضُّيُوفِ الْخَالِيَةِ : «مَاذَا
حَدَثَ ؟ أَيْنَ النَّاسُ ؟» .

فَقَالَ الْمَكِّيُّ : «اسْتَيْقَظُوا قَبْلَ الْفَجْرِ ، وَذَهَبُوا . إِنَّهُمْ يَسْلُمُونَ
عَلَيْكُمْ ، وَيَعْتَذِرُونَ لَكُمْ عَنْ اضْطِرَارِهِمْ لِلسَّفَرِ مُبَكِّرًا ، لِيَدْرَكَ
السَّيِّدُ عَبْدُ الْقَادِرِ الْفَرْدِيُّ مَوْعِدًا مَهْمًا كَانَ قَدْ سَهَا عَنْهُ فِي
الرِّبَاطِ» .

وَنَزَلَ الْخَبْرُ عَلَى الْحَاجِّ الطَّيِّبِ بَرْدًا وَسَلَامًا ، وَأَخَذَ يَحْمَدُ اللَّهَ
فِي سِرِّهِ ، دُونَ أَنْ يُظْهَرَ فَرْحًا أَوْ انْشِرَاحًا . وَصَعِدَ إِلَى غُرْفَتِهِ ،
وَتَوَجَّهَ حَالًا إِلَى الْقِبْلَةِ لَصَلَاةِ رَكْعَتَيْنِ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى خُلَاصِهِ !
كَانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ لِدَعَاءِ إِخْوَانِهِ الذَّاكِرِينَ فِي حَلَقَةِ
الذِّكْرِ ؛ فَقَدْ كَانُوا عَلَى عِلْمٍ بِمَحْتَتِهِ وَقُرْبِ إِفْلَاسِهِ !

وعادتِ الوالدةُ والبتان مع انبلاجِ الصباح ، فوجدنَ الدارَ خاليةً منَ الضيوفِ ، فظننَ أنهمَ بكرُوا إلى البحرِ . وأطلَّتِ الأمُ داخلَ الغرفةِ الكبيرةِ ، فلمَ تجذُ أثراً لأمتعتهم ، فسألتِ ابنها المكيَّ عنهم ، فقالَ : «ذهبوا إلى الجحيمِ ! » .

وكانَ زيانُ أقلَّ عنفاً والطفَ تعبيراً ، فقالَ : «اطمئني ، يا سيدتي رقيّةُ ، لنُ تريهم بعدَ اليومِ ! » .

فسألتِ المرأةُ متظاهرةً بالاستنكارِ : «لماذا ؟ ماذا فعلتمُ بهم ؟ » .

فقالَ زيانُ : «مزحناً معهم قليلاً . . . » .

فأضافَ المكيُّ : «لسنا نحنُ الذينَ فعلنا بهم ، سكانُ المكانِ همُ الذينَ فعلوا بهم ! نحنُ فقطُ حكيماً لهمَ بعضَ حكاياتِ الجنِّ والعفاريتِ قبلَ النومِ . . . والباقي فعلتهُ الكوابيسُ والأشباحُ والأرواحُ ! وقبلَ أن يطلعَ النهارُ ، جمعُوا أشياءهم ورحلُوا ، غيرَ مأسوفٍ عليهم ! » .

وَهَمَّتْ صُغْرَى الْبَتَيْنِ بِإِطْلَاقِ زَغْرُودَةٍ، فَحَدَّجَتْهَا أُمُّهَا
بِنَظَرَةٍ مَانِعَةٍ، وَنَظَرَتْ إِلَى الشَّائِئِينَ، وَقَالَتْ مَعَاتِبَةً: «آه مِنْكُمْ،
أَيُّهَا الْعَفْرِيَتَانِ! لَا بَدَّ أَنْكُمْ فَعَلْتُمَا بِهِمَا مَا اسْتَدْعَى رَحِيلَهُمَا بِهِذِهِ
السَّرْعَةِ، حَتَّى دُونَ أَنْ يُوَدَّعُوا!». .

فَأَخَذَا يَقْسِمَانِ، وَيَدْعُوَانِ عَلَى نَفْسَيْهِمَا بِأَمْرَاضٍ غَرِيبَةٍ،
مِثْلِ (أَبُو دَحَاسٍ وَأَبُو تِكَّائِي وَالْحَلَّاقِمِ وَالْحَمَى الثَّلَاثِيَّةِ)، وَبِأَكْلِ
الْخَرْقِ وَالْأَحْذِيَةِ الْبَالِيَةِ وَالتَّبَنِ وَالتِّينِ الشُّوكِيِّ بِقَشُورِهِ!
فَتَأَكَّدَتِ الْأُمُّ مِنْ أَنَّهُمَا يَمْزَحَانِ، وَتَرَكَتُهُمَا. وَتَعَلَّقَتِ الْبِنْتُ
الصُّغْرَى بِأَخِيهَا لِيَحْكِيَ لَهَا مَا جَرَى، فَجَلَسَ يَحْكِي بِطَرِيقَتِهِ
الْهَزَلِيَّةِ.

وَسَمِعَ الْحَاجُّ الطَّيِّبُ وَزَوْجَتُهُ قَهَقَهَاتِ الْفَتَاتَيْنِ، فَفَهَمَا أَنَّ
الْعَفْرِيَتَيْنِ قَامَا بِعَمَلٍ زَهَّادَ الضُّيُوفِ فِي الْبَقَاءِ فِي الْفُنْدُقِ
الْمَجَانِيِّ. وَأَخْفَى الزَّوْجَانِ الْوُقُورَانِ ارْتِيَاخَهُمَا لِلنَّتِيجَةِ السَّارَةِ!

* * *

وَمَرَّ أَسْبُوعٌ ارْتَاخَ فِيهِ الْمَكِيُّ مِنْ مَحْنَةِ الضُّيُوفِ الثَّقَلَاءِ،
وَتَنَفَّسَ أَهْلُهُ الصَّعْدَاءَ.

وفي اليوم الثامن جاءه صديقه زيان برسالة وصلتته من فريق شباب الرباط لكرة القدم، يطلب منه فيها القدوم بفريقه، شباب طنجة، للعب مباراة معهم هناك. كان المكّي من عشاق كرة القدم، ومن أنصار شباب طنجة، فتحمّس للفكرة، وحثّ زيان على الاستجابة للدعوة.

وأثناء مناقشة مصاريف سفر الفرق وإقامتها، خطرت ببال المكّي فكرة اقترحها على صديقه زيان، فوافق عليها في الحال. وتبسّم ضاحكاً وقال:

«سنضرب عُصفورين بحجر!»

وكان المفروض أن يحلّ الفريق المكوّن من خمسة عشر لاعباً بالرباط قبل ثلاثة أيام من المباراة، لتعرف الملعب والتدريب. فقام الاثنان لإعداد العدة للحديث الرياضي المهم.

* * *

عاد عبد القادر الفردي إلى بيته، بعد صفقة خاسرة، ضيّعت صباحه وأفسدت مزاجه. ولم يكذ يضع حقيبته ويخلع سترته استعداداً للغداء حتّى وقع طرق على الباب. وذهب

أصغرُ الأطفالِ لفتحِهِ . وحين رأى المكيَّ صاحَ سعيدًا ، وتعلَّقَ به . ثم عادَ إلى أمِّهِ يصيحُ : « إِنَّهُ المكيُّ ولدُ عمِّي الحاجِّ الطيّبِ ! » .

وسمعَ الفرديُّ ذلكَ ، فأصابهُ الفزعُ ، وتشنَّجَتْ عضلاتُهُ ، وأخذتْ عينُهُ اليُمْنَى تَطْرِفُ بِسرعةٍ وهو عاجزٌ عن السيطرةِ عليها . وارتبكتْ زوجته ، وارتعشتْ شفتاها ، وكأنَّها تتكلَّمُ بلا صوتٍ !

وخرجَ الصغارُ والغلمانُ لاستقبالِهِ ، وإدخالِهِ إلى البيتِ آمِلِينَ أن يأخذَهُم معهُ إلى طنجةَ . وتماثلَ الحاجُّ وزوجتُهُ من الصدمةِ ، وقرَّرا أن يستقبلا الفتى بشيءٍ من الترحيبِ . ومن يدرِي؟ لعلَّهُ جاءَ للاعتذارِ عما حدثَ ، ولدعوتِهِم للرجوعِ لإتمامِ العطلةِ .

وخرجَ الحاجُّ لاستقبالِهِ بابتسامةٍ مُتكلِّفةٍ : « أهلاً أهلاً . . . » .

وعانقَهُ ، فظهرَ من خلفِهِ عبدُ السلامِ زيانَ ، فمدَّ إليه الفرديُّ يدهُ مصافحًا ، وفتحَ البابَ ، ودعاهُما للدخولِ . وبعدَ

تبادل التحيات مع سيدة البيت ، الحاجة مليكة ، ومداعبة الأولاد ، وقف المكي يتلو على الجميع خطبة تدرب عليها طول الطريق . فذكرهم بعدد الأيام التي قضوها ضيوفاً عليهم وأنواع المأكولات والأطياب التي تمتعوا بها على موائدهم وبأيام البحر بالنهار والفسح في بهجة البحر الأبيض بالليل ، كل ذلك بلباقة من يعد استضافتهم إنعاماً منهم عليه . وتمنى في ختام الكلمة أن يصير مجيئهم إلى طنجة سنة في كل صيف !

وحين انتهى مد يده لمصافحة الفردي وزوجته واستئذانهما في الانصراف . فمد الفردي يده مغتبطاً ، دون أن يتحرك فيه عصب أريحية أو كرامة ، وكأنه تفادى مصيبة كادت تنزل به ! ولكن زوجته أمسكت بيد المكي ، وجذبتة إلى داخل الغرفة الكبرى ، مُقسمة عليه أن يبقى هو وصديقه للغداء والمبيت عندهم .

فقال المكي : « نحن لسنا وحدنا ، معنا بعض الأصدقاء الذين جاءوا معنا ، ولا نستطيع التخلي عنهم . ومنهم ابن والي المدينة وابن عميد الشرطة بها وابن وزير وعدد من أبناء الأعيان الأثرياء بطنجة . . . » .



فانفتح فمُ الفرديّ ، وتخيّل الفرصَ العظيمةَ التي ستيحُها
لَهُ التعارفُ بكلِّ هؤلاءِ الكبارِ من خلالِ أبنائِهِمْ ! فقالَ
للمكيّ مُلِحًا ومُسْتَعْجِلًا : «ماذا تنتظرُ، يا ولدي ؟ لماذا لم
تُدخِلْهُم في البداية ؟ في دارِنَا متَّسعٌ لجميعِ الأُحبابِ وأبناءِ
الأُحبابِ . . . » .

فخرجَ المكيُّ ، وعادَ بالفريقِ الذي ملأَ باحةَ الدارِ ! فكادَ
يُغمى على الحاجةِ مليكةَ ، ولكن ابنتيها أَسَدَتَاهَا ، وأدخَلَتَاهَا
المطبخَ ، وشَمَّرَتَا لإعدادِ غَداءٍ يكفي لِمِئَةِ خمسة عشرَ بطنًا
جائِعًا !

وخرجَ عبدُ القادرِ الفرديُّ لشراءِ المزيدِ من الموادِّ الغذائية ،
وصحبَ معه أولادَهُ الكبارَ لحملِهَا ، وهو مُتَأَرِّجٌ بينَ
الإِمتِعاضِ من الإنفاقِ الإِضافيِّ والطمعِ في صفقاتِ
وتسهيلاتِ وتُدخُلَاتِ وامتيازاتِ يحصلُ عليها عن طريقِ
ضيوفِهِ أبناءِ الكبارِ . . .

وعلى المائدةِ قَدَّمَ لَهُ المكيُّ وزيانُ أعضاءَ الفريقِ بأسماءِ
عائليّةٍ كبيرةٍ معروفةٍ . ورغمَ أنَّ مظهرَهُم الخشنَ ولهجتَهُم



السوقية وتصرفهم غير المهذب لم يكن يوحى بأنهم أبناء أعيان،
فقد فسّر الفرديُّ شكّه لصالحهم، قائلاً في سرّه: «لا غرابة في
أن يكون هؤلاء أبناء أعيان هذا الزمان، فقد انقلبت الدنيا،
وصار أسفلها أعلاها!».

واستمرت الضيافة الثقيلة الباهظة الثمن ثلاثة أيام
بلياليها، وبفطورها وغدائها وعشائها، والمكيُّ يُذكر الفرديَّ،
أثناء كلِّ وجبة بأصناف الطعام التي كانت تُعدّها أمّه لهم
بأسمائها، ويتفنّن في وصفها، والأولاد يصدّقون على أقواله
ببراءة تثير حفيظة الفرديّ، فيحرّك رأسه هو الآخر موافقاً . . .

وحين كان المكيُّ يتعب، كان زيان يأخذ الكلمة مذكراً
الجميع بأيام طنجة الجميلة، وكيف قضوها في راحة وهناء بدار
الحاجّ الطيب، وكيف كان يمكن أن تزيد على الشهر الذي
قضوه هناك، لولا ظهور سكان الدار المفزعين !



وفي اليوم الرابع، أحسّ زيان أن الفرديّ يكاد ينفجر من
الضغط الشديد على ميزانية بيته. فاستدرج أحد أطفاله ليعرف



منهُ ما يروُجُ بينَ أبَوَيْهِ خَلْفَ بابِ الغُرْفَةِ المُقْفَلِ ، فعَلِمَ أنَ الفرديَّ يُدَبِّرُ مؤامِرَةً للهروبِ بِأسرَّتِهِ مِنَ الدارِ وَتَرْكِهَا لَهُمْ ، أوِ إخراجِهِمْ مِنْهَا ، بِدَعْوَى سَفَرٍ مُفاجئٍ لِحُضُورِ جَنَازَةِ أَحَدِ أَفرادِ العائِلَةِ في مَدِينَةٍ أُخَرى . . .

وخرَجَ الفرديُّ ، بَعْدَ اسْتِراحَةِ الغَداءِ مِنْ غُرْفَتِهِ ، عازِمًا عَلَيَّ أنَ يُخبرَهُمْ بأنَّهُم جَميعًا ذاهِبُونَ لِحُضُورِ جَنَازَةِ عَمَتِهِ بِفَاسٍ .
وَقَبْلَ أنَ يَفْتَحَ فَمَهُ ، بادِرُهُ زِيانُ بِقَوْلِهِ :

- أبشِرْ ، يا سَيِّدِي عبدَ القادرِ ، أبشِرْ !

وَفَتَحَ الفرديُّ عَيْنَهُ خَلْفَ الزِجَاجِ السَّمِيكِ ، وَكَأَنَّهُ يَسْمَعُ بِهِمَا ، قائلًا :

- بَشِّرْكَ اللهُ بِالْخَيْرِ .

- معالي وزير الشَّيْبَةِ والرياضَةِ ، والدُّ عبدِ الحميدِ ، قَلْبِ الدِّفاعِ ، طَلَبَ أنَ يَقابِلَهُمْ غَدًا بَعْدَ المِباراةِ ؛ لِيناقِشَ مَعَهُمْ صَفقَةَ عَقاراتٍ كَبيرةٍ لوزارَتِهِ ، فهاذًا سَنَقُولُ لَهُ ؟

ودارَ دماغُ الفرديِّ لِسَماعِ كَلِمَةِ الوَزيزِ وصَفقَةِ العَقاراتِ ،

وبسرعة الحاسوب استتج ما ستصبح عليه حاله، بعد فوزه
بصفقة الوزارة. فقد عاش حياته سمساراً صغيراً، لا تعدى
صفقاته بيع وكراء الغرف والشقق القديمة. فقال متحمساً:

- طبعاً! مرحباً به للعشاء معنا... وقل له إن زيارته لبيتنا
المتواضع ستكون شرفاً عظيماً لي ولأسرتي.

وأسرع يخبر زوجته بالنبا السار، ويوصيها بإعداد عشاء لائق
بوزير.

وهكذا ضمن زيان لفريقه ضيافة يوم ونصف يوم آخرين.
ولكن المكي قلق للكذبة الكبيرة، فاحتل بزيان، وسأله:

- وماذا سنفعل حين يسألنا عن الوزير ساعة العشاء؟
الوزير لا يمكن تزويره كالأشباح!

فقال زيان مبتسماً:

- اترك التفكير في ذلك لهذا الرأس!

وضرب على جبينه بكفه، وأضاف:

- وما عليك أنت إلا أن تأكل جيداً، وتستمتع بطيب المقام
وكرم الضيافة ! فأنت لا تأكل إلا ما أسلفت لهؤلاء التتر . . .



وجاء اليوم الكبير، وانتهت المباراة بفوز الفريق الزائر، وعاد
الفريق المنتصر إلى دار مُضيفه سعيداً يحمل أبطاله على أكتافه،
ويلوح بالكأس للمارة . . .

وحين دخلوا سأل الفردي الذي كان لابساً بذلة العيد :

- أين معالي الوزير ؟

فقال زيان :

- سيتأخر قليلاً . . . جاءته مكالمة هاتفية من السيد الوزير

الأول لحضور مجلس حكومي طارئ، ويخشى أن يطول الاجتماع
ونجوع . وقد وعد بالإفطار معنا غداً صباحاً، بحول الله .

وأسقط في يد الفردي، ففكر في تغيير العشاء بآخر أقل
تكلفة . ولكن زوجته اعترضت بدعوى أن الوزير سيعلم من
ابنه، ويأخذ انطباعاً سيئاً عنهم .

واجتمعَ الفريقُ على أطباقِ المشويِّ والدجاجِ المحمَّرِ
والفواكهِ والحلوياتِ والمشروباتِ الثلجَةِ التي لمْ تدخلْ قطُّ إلى
بيتِ الفرديِّ ! وسهرُوا الليلَ يتحدثونَ عن المباراةِ ولحظاتها
الحاسمةِ . وكانَ الجميعُ يتكلَّمُون ولا ينصِتُون إلا صغارَ الفرديِّ
المبهورين بتجربةِ دخولِ الضيوفِ إلى بيتهم لأولِ مرةٍ ،
وبجلوسِهِمْ معَ فريقٍ كاملٍ لكرةِ القدمِ !



وفي الصباحِ ، وبعدَ أنْ جهَّزَ الإفطارُ ، جاءَ صبيُّ البقالِ
ليقولَ للفرديِّ : «يسلِّمُ عليكمُ السيدُ الوزيرُ ، ويقولُ لكمْ لا
تنتظروهُ بالإفطارِ ، وإنَّه سيأتي لشُرْبِ القهوةِ معكمْ ، حالماً
يغادرُ الوزراءُ منزلهُ» .

وغمزَ زيانُ صديقَه المكيَّ ، مرةً أخرى . وأقبلَ الجميعُ على
أطباقِ السفنجِ والبغريِرِ بالزبدَةِ والعسلِ وكؤوسِ الشايِ
والقهوةِ بالحليبِ وعصيرِ الفواكهِ بشهيةِ الذَّئابِ الجائعةِ . . .



وبعد الإفطار جمع أعضاء الفريق حقائبهم ، وأخذوا
يسلمون على الحاج ، ويخرجون ، وهو يُحْمَلُ فيهم من خلف
نظارتِه غيرَ فاهمٍ ! وأخيراً أمسك زيان من ذراعِه وسأله :

- ألا تنتظرون حتى يأتي السيد الوزير ؟

ولم يُجب زيان حتى اقترب من باب الخروج ، والرجل يُلحُّ
في السؤال . فالتفت إليه بوجه جامد ، وقال :

- أيّ وزير ؟ !

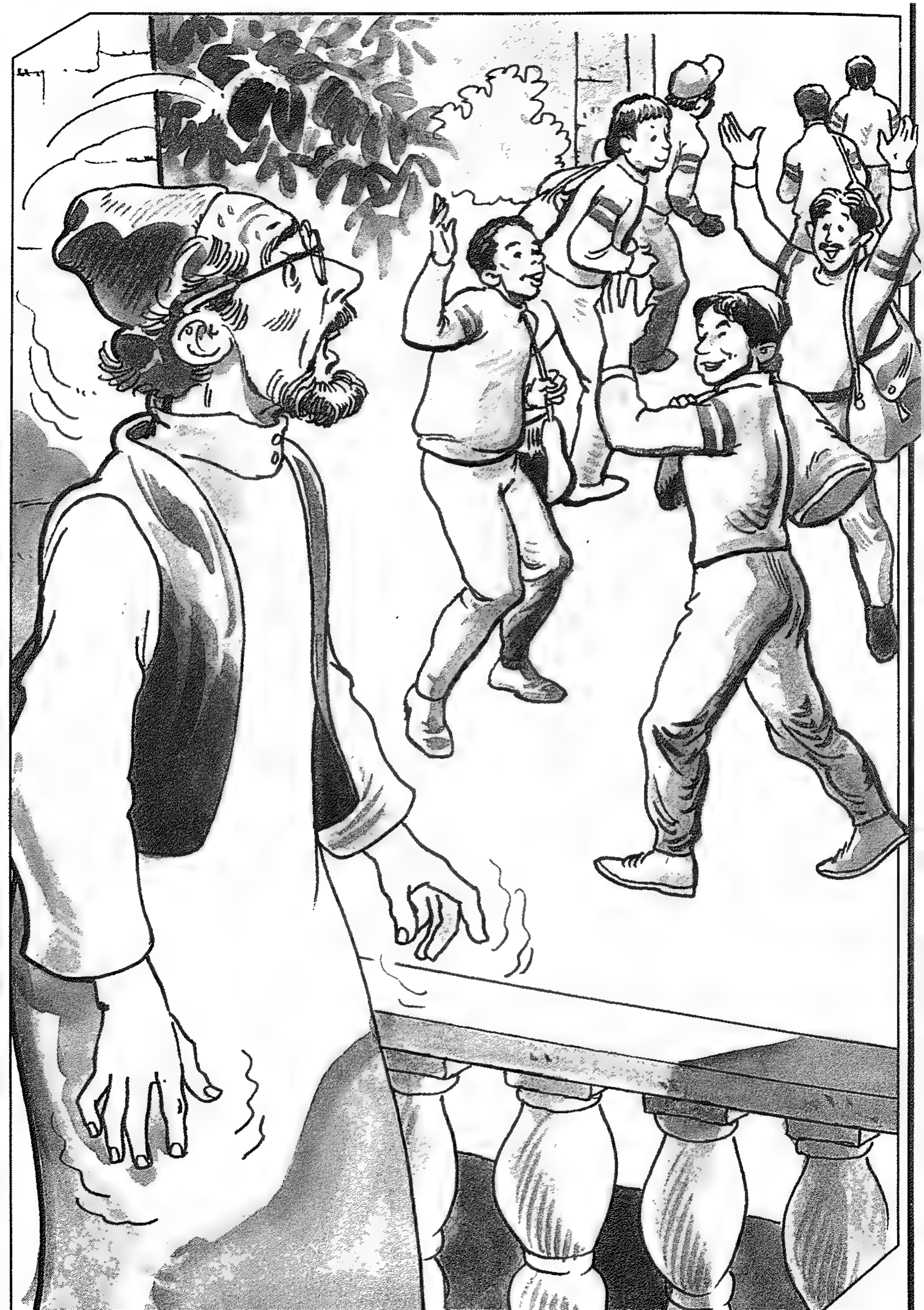
فصاح الفردي مستنكراً تجاهله :

- ويلي ! وزيرُ الشبيبة والرياضة . . . وصفقة
العقارات . . . والوزارة . . . ومجلس الحكومة !

واختلط عليه الكلام وتلعثم . ونظرَ زيان إلى يده القابضة
على ذراعِه ، ثم إلى وجهه ، وقال آمراً :

- اترك ذراعي !

فولول الفردي :



- ويلي وحدي ، أستغفرُ الله !

وأشارَ زيانُ إلى أعضاءِ الفريقِ سائلاً الفرديُّ :

- هل صدّقتَ أنّ هؤلاءِ أبناءُ وزراءٍ وأعيانٍ؟! آباءُ هؤلاءِ
أعلاهم رتبةً في الحكومةِ عسكريٌّ متقاعدٌ ! أما الباقون فإما
بائعُ نعناعٍ أو إسكافيٌّ أو حمالٌ أو عاطلٌ ! وأغلبُ الأولادِ لم
يدخلُوا المدرسةَ . . . فاحمدُوا اللهَ على أنّهم لم يذبْحوكُم ،
ويسرقُوا أثاثَ الدارِ ! فتلكَ هوايتُهم المفضلةُ . . . وتحسّسَ
الفرديُّ حنجرتَه بيدهِ عندَ سماعِ كلمةِ الذبحِ . وسحبَ زيانُ
ذراعَهُ بعنفٍ من قبضتِهِ المعروقةِ المرتجفةِ ، وقالَ :

- إذا لم تكونوا مستعدينَ لاستضافةِ الناسِ إلا بالطمعِ
والابتنازِ وبالمقابلِ ، فلا تنزلُوا ضيوفاً على من لا يعرفونكم ولا
تعرفونهم ، وتأثّوا على الأخضرِ واليابسِ كالجرادِ ، وتركّوهم
غارقينَ في الديونِ .

وصفّقَ أعضاءُ الفريقِ ، وعلاً هتافُهُم باسمِ زيانَ ، وحملّوه
على أكتافِهِم ، وذهبُوا يُنشدونَ نشيدَ الفريقِ طولَ الطريقِ إلى
محطةِ القطارِ .

هذه السلسلة

تضم هذه السلسلة مجموعة
مختارة من القصص والروايات
التربوية التشويقية المختارة
للكاتب المغربي المعروف أحمد
عبد السلام البقالي، الحاصل علي
جائزة «المنظمة العربية للتربية
والثقافة والعلوم».



وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس،
وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من
مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب للقارئ
أحداث الماضي البعيد، ويلقي الأضواء على
المستقبل، بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاضر
فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية -
الحديثة للشباب في العالم العربي.

Bibliotheca Alexandrina



0388821

مكتبة